تصدير

هذا كتاب طب وأدب . وقديماً كان الطب والأدب صفيَّين . ولم يذكر تاريخ اللغة العربية طبيباً لم يكن أديباً إلا نادراً ، ذلك أن الطب أقرب العلوم إلى الأدب لأنه يعالج أسقام الإنسانية . وينزل إلى أدنى دركات بؤسها وشقائها . فيذكي العاطفة . ويثير الشفقة . ويبحث إلى جانب هذا فى تكوين الأحياء ونموهم . ويعرف النسبة التى تختطها الطبيعة لهم فلا يعدو فى ذلك تفهُّم الجمال فى تطور مجاليه . وتعرُّف القبيح وجماله إن صح أن للقبيح جمالاً . ولا أرى للأدب عاملين أقوى من العاطفة والجمال .

إننا فى فجر نهضتنا الأدبية نرحب بكل جديد يفتح للفكر آفاقَ إن لم تكن مستغلقةً فهى على كل حال مجهولة . وأرى أن كتاب « ما بين العقل والجنون » من الكتب الطريفة التى تستوقف النظر بين الركام المتراكب من الأسفار التى تحبلنا بها المطابع الخصبة بالورق والمداد . ذلك أن هذا الكتاب نتيجة ملاحظات دقيقة قضَّى صديقنا الدكتور محمد حسنى ولاية سنوات عديدة فى تدوينها وتنسيقها . جاهداً فيها علم الطبيب . ورأى الأديب . دارجاً فيها على خطة مرسومة . سالكاً سبيلاً خاصاً .

والدكتور محمد حسنى ولاية لم يتجاوز بعد العقد الثالث من عمره يلتهب ذكاءً . ويسيل عذوبة . طاهر النظرات . صافى السريرة . إذا جلست إليه تبينت فيه بساطة العالم . وذكاءَ المتأدب . وثقافة الأديب . وإذا تحدثت إليه فى مهنته أكبرت إخلاصه لعلمه . وفهمت كيف يوالى أبحاثه صابراً مكدود القلب . مشغوف النفس . بكل ما يزيد فى طرائف ملاحظاته . مطالعاً أحدث الأبحاث العالمية فى هذا الجانب من الطب الذى تخصص فيه .

ولعل هذا الحماسَ الذى يكسبه قوة فى أبحاثه يكسبه شيئاً من الضعف فيها . ولا أكذب الله أنى توقفت لدى كثير من الحالات التى يعرضها فى كتابه وينسبها إلى الجنون والشذوذ ، وطفقت أطبقها على نفسى فكدت أرانى موضوعاً من موضوعاته . وبطلاً من أبطاله . بل ذهبت إلى أبعد من ذلك وتوسعت فى التطبيق على أقرانى وعشرائى فكدت أراهم جميعاً مجانين .

أجل ! إن الدقة فى البحث . والأمانة فى استقراء الحالات الطفيفة . والتعمق فى الرجوع إلى الأسباب الخفية الدافعة على الهنة الهينة . كل هذا علمى محض . ولا بد للعالِم من إقامة وزن له . ومحاولة تعليله وتدبره من جهاته كلها وإن كانت الحياة على ما أظن أبسط من أن نعقّدها بل كفانا تعقيدها حتى نزيد فيه بتفسيره ووضعه نصب أعيننا .

وليس كتاب « بين العقل والجنون » علمياً محضاً ، ولولا ذلك لما كانت فيه هذه الطرافة التى تملك مشاعر القارىء وتدفع به إلى عبوره حتى النهاية . ففيه الصورة البارعة ترسمها ريشة الراسم مستوفاة الأسطار والألوان واضحة التخاطيط متناسبة الأجزاء مصبوبة فى قالبها الصحيح حتى ترى صاحبها ماثلاً أمام عينيك . وناهيك بعالَم الجنون ميداناً فسيحاً لمثل هذا الاستعراض ، فمنهم من يبعث فيك الأغراب فى الضحك . ومنهم من يثير فيك عوامل الاشمئزاز والضجر وغيرهم بل غالبهم يستفزك رحمة وشفقة ويستفزك التفكير والتأمل فى هذا الأظلام الحسى . والإقفار الفكرى . أو على النقيض منهما فوضى ضاربة أطنابها فى غيابات العقل والقلب .

وفى الكتاب الفكرة الناضجة يقرها تأمل المفكر المستقرى باحثاً فى العلة والمعلول . ناشداً مباعث الشذوذ . وجلاً من نتيجته . الدواء قبل استفحال الداء .

فالكتاب جم الفوائد للأطباء والأدباء . يفيد الطبيب فى عرض مشاهداته المستفيضة وتتبُّعها فى مختلف أطوارها وتقليبها على شتى وجوهها ، يعرف الداء تعريفاً علمياً ، ويصف الدواء وصف خبير عليم بعيداً عن الجفاف العلمى الذى يمل منه غير الاختصاصيين وهو يفيد الأديب حينما يستعرض ما يستعرضه

متساوق الفصول فى مرح وسهولة يبسط بهما العلم تبسيطاً يجعله قريب التناول حلو الإساغة . سريع التفهُّم . وهى غاية جليلة طالما عالجها غيره وقليل هم الذين أصابوا منها إصابته ونجحوا فيها نجاحه .

ولا يتسع هذا التصدير للاشادة والتدليل ولولا ذلك لأمكن الرجوع إلى فصول عديدة فى الكتاب يسيل فيها السياق سهلاً ممتنعاً كما يسيل فى قصة عصرية بارعة ؛ على أن هذه الصور المختلفة والملاحظات الدقيقة تحتفظ إلى جانب الطابع الأدبى الذى طبعت به ـ برسمية الوثيقة الصحيحة التى يوثق بها . والأسنودة العلمية التى يستند إليها . فهى ذخر نفيس لكُتَّاب الأقصوصة والقصص توليهم أيَّ يد فى دراسة البشرية . والأخلاق الإنسانية . وتساعدهم على تحليل الشخصيات المعقَّدة . وتدلهم على مداخل البدوات ومخارجها . حتى يكونوا على بصيرة مما تؤول إليه خطرات القلب . ورغبات النفس . فيتتبعوا سبيل التأثر فى العصب منذ اقتداحه فيه حتى اشتعاله واندلاعه . وإذا علمنا أن « بول بورجيه » كان طبيباً قبل أن يكون قصصياً فهمنا سر توسعه فى تحليل أبطال قصصه تحليلاً ينفذ إلى أدق زاوية من زوايا القلوب والنفوس .

بل إن الكاتب الكبير إميل زولا حين شرع فى كتابة سلسلة قصصه عن أسرة « روجون ما كار » وهى تقع فى عشرين سفراً ونيف كان يطبق فى سردها نظريات كلود برنارد العلمية . وسواء أخفق فى التطبيق أو لم يخفق فانه أتحف الآداب الفرنسية بصحائف ضمَّت فى مطاويها أروعَ الوصف وأصدقَ النظرات على الرغم من ذلك الأدب المكشوف الذى وسمت به مؤلفاته .

وعلى ذكر الأدب المكشوف أعرف غير واحد من الذين لا يرضون عن الفصل المسهب الذى بحث فيه المؤلف الغريزة الجنسية . ولو كان هذا الكتاب أدبياً محضاً لعل هؤلاء يكونون على جانب من الحق إذا جارام المؤلف فى ميولهم إلى الصمت دون الكلام . والاخفاء دون الاذاعة . ولكن المؤلف يبقى كتابه مبتوراً لو أنه أغفل هذا الجانب الهام من البحث ولبس لعلمه مسوح المتبتل ولوى عليه لثام الحياء . وإذا كان لمذهب الفن

للفن أشياع وأنصار فأخلق بأن يكونوا أوفر عديداً لمذهب العلم للعلم .

* * *

على أن الناظر فى الكتاب لا يمكنه أن يغفل فيه ترجيح الطبيب على الأديب . فبينما يراه من الوجهة العلمية واسع الآفاق متشعب المباحث يحاسب نفسه على كل شاردة وواردة ، إذا به يتهاون فى قليل من المواقف باستقامة الأسلوب ويتناول أسهل ما يصل إليه قلمه من التعبيرات غير آبه للثوب الذى يسبغه على فكرة فأذا فيه شىء من الهلهلة فى بعض الأحيان لا شك أنها تعجب الأطباء ولكنى لا أخالها ترضى جميع الأدباء .

* * *

وبعد ، فهذا كتاب يستحق عليه صديقنا الدكتور محمد حسنى ولاية كل الثناء لما بذل فيه من نشاط وعلم وأدب وفتح من آفاق جديدة لبحث العلماء ومن أبواب لأعين الأدباء وهو لا شك مواصل جهوده . مثابر على الأخلاص لعلمه وعمله . لما فى هذا كله من نفع الوطن خاصة وللأنسانية عامة .

خليل شيبوب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، أما بعد فانني لما بصرت بمسيس الحاجة الى سفر عربى يجمع شتات أوصاف الأمراض العقلية والعصبية والنفسانية ، وأعراضها ، وملابساتها ، ومضاعفاتها ، ووسائل علاجها ، حفزنى الواجب الى تصنيف هذا الكتاب قياماً بقسطى فى خدمة العلم وأداءً لحق أمتى وبلادى علىّ ، ووفاءً للمهنة التى كرست حياتى على خدمتها ، راجياً أن أكون وفقت لاصابة المرمى ، آملا الصفح عن التقصير والعثرات ، فان العصمة لله وحده المنزه عن الزلات .

ولقد قسمت الكتاب الى أربعة أبواب ، حيث يجد فيها قرائى الكرام متعة الوقوف على أسرار تلك العوارض المتباينة ، والالمام بما يخالج صرعاها من الخواطر الغريبة الواهنة ، وما تمليه على بعضهم ذاكرتهم الواهمة ، فيدونونها فى مذكراتهم كأنها حقيقة راهنة .

ولم يفتنى وصف العلاج الملائم لكل حالة من تلك الحالات ، ولا تبيان النظم الواجب اتباعها حيال المصابين بأى عارض من تلك العوارض المختلفة الأوصاف والتطورات ، ولا مأرب لى فى ذلك سوى النفع العام ، وتسجيل اختبارى فى سفر يبقى على مر الأيام .

وانى أسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق فى البدء والختام ، وأبتهل اليه جل شأنه أن يشمل بالنصر والتأييد صاحب الجلالة مليكنا المحبوب فاروق الأول على الدوام ، إنه سميع الدعاء ؟

المؤلف

تناول الطعام ، لا لسبب سوى أنه يعلم أن الأطباء يتأففون من عملية تغذية المرضى صناعياً بواسطة « اللىّ » المعدى فهو يضرب عن الطعام لانه يشعر بلذة كبيرة بارهاق الأطباء وحملهم على الانتقال الى مأواه وتغذيته صناعياً فيجلس على الأرض ويسمح للطبيب بادخال « اللىّ » المعدّ للتغذية من فيه الى معدته دون أن يبدو عليه أى امتعاض أو تأفف !

وتقيم فى مستشفى العباسية بالقاهرة مريضة بالبارانويا يخيل اليها أنها ملكة ، وتتصور أن كل ما يحيط بها يصطبغ بلون الملك ، فكانت تميل الى العزلة وتتحاشى الاختلاط برعاياها ، وتتوخى الجلوس فى مكان لائق « بجلالتها ! » ، وصنعت لنفسها ثوباً وتاجاً جميلاً مزركشاً بأجمل الرسوم ، وكان أحد جانبي الثوب أسود مزركشاً بالابيض والجانب الآخر أبيض مزركشاً بالاسود ، وكانت تصنع هذه الحلل الدقيقة الصنع من خيوط (بطانيات) المرضى التى كانت تعمد الى تنسيلها لتمدها بالخيوط اللازمة للزركشة ، وكانت تزين تاجها وصدرها بالزهور ، وهى بالرغم من عظمة الملك التى كانت مستحوذة على نفسيتها كأنها حقيقة لا مراء فيها كانت تستقبلنى كلما قدمت اليها باحترام تام ثم تنشد لى أجمل الأناشيد بصوت عذب !

يمتاز كثيرون من المصابين بالبلاهة أو العته بميلهم لسماع الموسيقى وببراعتهم فى تقليد مسير الجمال والخيل والقطارات وأصواتها .

عالجت مريضة مصرية مصابة بالهوس (Mania) كانت قبل إصابتها به هادئة رزينة ، فلما انتابها هذا المرض كانت تعمد فى بعض الأحيان الى تقليد لهجة المغاربة فى محادثاتها تقليداً مدهشاً ، ولما شفيت من مرضها لم تكن تستطيع ذلك التقليد .

ومن عاداتنا المتبعة فى مستشفى المجاذيب أن نسأل مرضانا فى فترات عن المكان والزمان وعما تناولوه من الطعام على سبيل اختبار قواهم العقلية ، فاذا كانوا فى حالة ذهول لم يستطيعوا الاجابة عليها أو خلطوا فيها ، غير أنه عند ما يتنبه بعضهم يعمد الى الاجابة على الأسئلة نفسها التى ألقيت عليهم فى فترات الذهول ليقنعونا بأنهم يقظون ، ويشفعون ذلك عادة بطلب السماح لهم بالخروج من المستشفى .

أعرف رجلاً أراد ذات يوم أن يضع مائدة فى وسط غرفة بحيث يكون سطحها أفقياً تماماً فأخذ ينثنى لينظر بمستوى سطح المائدة من جميع جهاتها للتأكد من ذلك ، غير أن هذه الموازنة النظرية لم ترح فؤاده فأتى « بميزان الماء » ووضعه على المائدة للتأكد من أنها أفقية تماماً ....

لبعض العظماء الذين يشغلون مراكز سامية فى مختلف الدول ويهيمنون على مهامها اعتقادات هذيانية كامنة فتراهم يدبرون المؤامرات للايقاع بسواهم من رجال دولتهم اعتقاداً منهم بان أولئك يكيدون لهم ويتآمرون عليهم !

توجد حالة فى بعض الأشخاص المعدودين فى عداد العقلاء وهى الميل لاتيان ضد ما يطلب اليهم عمله أو ما يؤمرون به ، ومنهم من اذا سمع كلمات جارحة لشعوره مثلاً أخذ يرددها بصوت مسموع ساعات متوالية فى فترات متقطعة ، ومنهم من يقلدون حركات الاشخاص الذين أهانوهم ، وهذه الظواهر تشابه تماماً ما يفعله بعض المرضى بجنون المراهقة .

وكثيراً ما نرى بعض الاطفال يتعمدون فى أثناء سيرهم لمسَ كل ما يصادفهم فى طريقهم ، أو أنهم يسيرون على أطراف أرصفة الشوارع على قدم

واحدة ، وهذه من المميزات التى يأتى بها بعضُ مرضى جنون المراهقة .

ومن الدلائل التى تدل على تأثير الأمراض الطفيلية (كالبلهارسيا والانكلستوما) على المدارك العقلية ، أننا كثيراً ما نرى فى بلد كالقاهرة أو الاسكندرية فلاحاً مصحوباً بعائلته ينتظرون الترام ليقلهم الى الجهة الاخرى التى يقصدونها ، فاذا ما وصل الترام أسرع الفلاح الى تسلقه تاركاً عائلته ، ثم هو لا يلبث أن يستدرك خطأه فينزل ليساعد أفراد عائلته على الصعود .

وكثيرون من المصابين بالأمراض الطفيلية يفقدون سرعةَ البديهة ، فتراهم لا يجيبون على الأسئلة التى توجَّه اليهم الا بعد مدة يظهر فى أثنائها اضطرابهم الفكرى فى أسارير وجوههم .

تلك حالات تبين امتزاج العقل بالجنون والجنون بالعقل فى كثير من الأحيان ، وتبين أنه ليس هناك حد فاصل بينهما . وقد اقتصرتُ على ذكر الأمثلة المتقدمة حرصاً على توازن من عساهم يكونون عرضة للاستهداف للأمراض العقلية ممن يستطيعون قراءة كلمتى هذه ، والسلام .